المحاضرة 5 الخصائص لابن جني

كتاب الخصائص من أهم كتب ابن جني وأشهرها في أصول اللغة، والتصريف والنحو ولعل الذي دفعه إلى محاولة تأصيل هذه العلوم الثلاثة، هو تعظيمه لهذه اللغة وإجلالها التي فاخر العجم بها مفضلا إياها على لغتهم، قال: (لو أحسبت العجم بلطف صناعة العرب في هذه اللغة، وما فيها من الغموض والرقة لاعتذرت من اعترافها بلغتها) والكتاب يقع في ثلاثة أجزاء ، وقد حققه الأستاذ محمد علي النجار.

أولا: التعريف بابن جني:

هو أبو الفتح عثمان بن جني النحوي الأزدي بالولاء، كان أبوه جني روميا وهو بكسر الجيم والنون المشددة وهو الأشهر، وقد تحقق، معرب كني باليونانية كان أبوه جني مملوكا لسليمان بن فهد بن الأحمد الأزدي من أعيان الموصل، ويظهر أنه أسلم لأن ابنه أبا الفتح قد ربي تربية إسلامية محضة.

ولد ابن جني بالموصل ويقول من توجه له :عنه ولد قبل الثلاثين والثلاثمائة من الهجرة ولا يعنون مولده بعد هذا إلا أبا الفداء في المختصر فهو يذكر أن وفاته سنة 302 ه ويقول ابن قاضي شعبة في طبقات النحاة عنه توفي وهو في سن السبعين فإذا أخذ بهذا وروعي أن وفاته كانت في سنة 392 ه فإن ولادته تكون في سنة 322 ه أو سنة 321 ه، كما أشار إلى ذلك ابن النديم وابن الأنباري.

وقد أخذ النحو من أحمد بن محمد الموصل الشاقعي المعروف بالأخفش، وقد أخذ فيما بعد عن أبي علي فأكثر الأخذ عنهم وهو الذي أحسن تخرجه ونهج له البحث وفن له سبل استقصاء والتوسع في التفكير وقد أخذ عن الكثير من رواة اللغة والأدب ومن هؤلاء أبو بكر حسن المعروف بابن مقسم، وهو من القراء وكان راوية ثعلب ويروي ابن جني عنه أخبار ثعلب وعلمه وابن مروى كثيرا من الأعراب الذين لم تفسد لغتهم: وقد اتبع سلفه من اللغويين وكان لا يأخذ عن بدوي إلا بعد أن يمتحنه ويتثبت من أمره وصدق نجيزته.

وقد ألف بن جني العديد من الكتب التي أحصاها :الياقوت في معجمه فقد بلغت تسعة وأربعين كتابا منها :سر الصناعة، تفسير ديوان المتنبي الكبير، تفسير معاني ديوان المتنبي، اللمع في العربية، كتاب الألفاظ المهموزة، التهذيب، وغير ذلك من الكتب التي تشير إلى طول باعه في علمه.

وقد تخرج على يد ابن جني جماعة من فحول العلماء، وفي علوم اللغة المختلفة من ابرزهم: أبو القاسم الثمانيني، وأبو احمد عبد السلام البصري، وأبو الحسن السمسمي، وأبو الحسين شاهويه، والشريف الرضي، ووعلي بن زيد القاشاني الذي امتاز بضبط الخط ، وكان مصاحبا له، وأبو عبد الله الحسين بن نصر الذي أجاز له ابن جني أن يروي عنه مصنفاته وكتبه، وابن سنان الخفاجي، وغيرهم.

مكانته العليمة :لابن جني مكانة علمية بارزة فهو القطب في لسان العرب إليه انتهت الرياسة في الأدب وقال فيه ابن الأنباري: (كان من حذاق أهل الأدب واعلمه بعلم النحو

والتصريف)..ولم يتكلم أحد في التصريف أدق كلاما منه. وقال السيوطي : (وعلمه بالتصريف اقوى واكمل من علمه بالنحو).

وقد برع ابن جني في اللغة فضلا عن علم النحو والتصريف، وتفوق فيه على سابقيه، فهو الذي أثبت كثير من النظريات اللغوية التي قال بها القدماء ، وزاد عليهم ، ومن هذه النظريات التي ثبتها ورسخها: أن اصل اللغات هو الأصوات المسموعة قال: (وذهب بعضهم إلى أن اصل اللغات كلها، إنما هو من الأصوات المسموعات كدوى الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشجيج الحمار ، نعيق الغراب ، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي، ونحو ذلك ، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد ، وهذا عندي وجه صالح ، ومذهب متقبل) ومن النظريات التي اكتشفها ، نظرية تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، وقد ثبتها ودلل عليها واعترف بعمومها ، وكثرة دوان العرب عليها ، وقد أغفلها السابقون ولم يقفوا عليها ومن أشهر نظرياته التي خدمت اللغة العربية، نظريته في الاشتقاق الأكبر، قال السيوطي: (بانه لم يقل بها أحد غيره).

لقد كان ابن جني في سعة علمه، وفهمه دقائق المعاني، وقدرته على استنباط لأصول من الفروع، وجراته الفكرية جديرا بثناء القدماء والمحدثين عليه.

ثانيا: تعريف الكتاب

لا يحمل كتاب الخصائص لابن جني في طياته موضوعا واحدا وإنما جمع فيه جل مباحث العربية فيقول: " وإنما هذا الكتاب مبني على إثارة معادن المعاني، وتقرير حال الأوضاع والمبادئ وكيف سرت أحكامها في الأنحاء والحواشي". والسبب في تأليف هذا الكتاب أنه أهداه إلى بهاء الدولة الذي تولى الحكم في بغداد بين 379 ه-403ه.

ألف ابن جني كتابه بعد وفاة شيخه وأستاذه أبي علي الفارسي الذي كانت وفاته سنة 377ه ويشير إلى ذلك في الخصائص في مبحث الاشتقاق الأكبر.

إن موضوع الكتاب هو أصول النحو وقد استفاد ابن جني كثيرا من العلوم التي كانت مزدهرة في عصره مثل: علم الكلام والمنطق وأصول الفقه وغيرها. والكتاب في ثلاثة أجزاء. في الجزء الأول حديث عن الكلام والقول واللغة وعللها، وبدأه بالحديث عن حدود اللغة والفرق بين الكلام والقول، ثم يتحدث عن النحو والإعراب والبناء ويناقش قضية أصل اللغة ما بين الإلهام والاصطلاح يتحدث عن علل العربية أهي كلامية أم فقهية، ثم باب القول في الاطراد والشذوذ وباب في مقاييس العربية وأنواع القياس وباب في العلل ومواضيع أخرى.

وفي الجزء الثاني يستكمل ابن جني القضايا التي عالجها في الجزء الأول ويوضحها وتناول فيه الفصاحة في اللغة وقضية وضع اللغة والاشتقاق الأكبر والإدغام الأصغر وغيرها. وفي الجزء الثالث يتناول قضايا تتعلق باللفظ منها الاستخفاف والإضافة والاختصاص وقضايا لغوية متنوعة.

الهدف من تأليفه: أولى ابن جني هذا الكتاب عناية خاصة في التأليف وجعله على غير مثال سابق حيث يوضح الغرض من تألفيه فيقول ":و ليكون هذا الكتاب ذاهبا في جهات النظر، إذ ليس غرضنا فيه الرفع، و النصب و الجر، لأن هذا أمر قد فرغ منه في أكثر الكتب المصنفة فيه منه، و إنما هذا الكتاب مبني على إشارة معادن المعاني، و تقرير حال الأوضاع والمبادئ، وكيف سرت أحكامها في النحاء والحواشي "
يهدف ابن جني إلى البحث في أمور جديدة لم يتم البحث فيها من قبل من خلال عرضه لجوهر خصائص اللغة العربية. كما يقول في موطن آخر ":إن هذا الكتاب ليس مبنيا على حديث وجود الإعراب وإنما هو مقام القول على أصول هذا الكلام، وكيف بدأ وإلى ما نحى ." فابن جني قصد من وراء تأليف كتاب " الخصائص "إلى البحث عن مزايا العربية وأسرارها معللة بأمور الحقيقة التي توضح جمال الأساليب في تلك اللغة.

ثالثا: القضايا اللسانية (اللغوية) في كتاب الخصائص:

1. مفهوم اللغة عند ابن حني: باب القول في اللغة وما هي

يقول ابن جني: "أما حدها فإنها (أصوات) يعبر بها كل قوم عن أغراضهم. هذا حدها. وأما اختلافها فلما سنذكره في باب القول عليها: أمواضعة هي أم إلهام. وأما تصريفها ومعرفة حروفها فإنها فعلة من لغوت. أي تكلمت؛ وأصلها لغوة ككرة، وقُلَةٍ، وَثُبَة، كلها لاماتها واوات، لقولهم. كروت بالكرة، وقلوت بالقلة، ولأن ثبة كأنها من مقلوب ثاب يثوب. وقد دللت على ذلك وغيره من نحوه في كتابي في "سر الصناعة". وقالوا فيها: لغات ولغون، ككرات وكرون، وقيل منها: لغِى يلغَي، إذا هذى، ومصدره اللغا... وكذلك اللغو، في قوله سبحانه وتعالى: "وإذا مروا باللغو مروا كراما" أي بالباطل وفي الحديث: "من قال في الجمعة: صه فقد لغا" أي تلكم. وفي هذا كاف". ويتفق هذا التعريف مع تعريف المدرسة السوسرية الغربية الحديثة للغة، فقد عرفها سوسير بقوله: "نظام من الإشارات التي تعبر عن أفكار".

2. نشأة اللغة:

لقد عرض ابن جني في الخصائص مسألة نشأة اللغة العربية التي كانت مدار اهتمام العلماء آنذاك وأوضح بتعليل منطقي أن اللغة أكثرها مجاز صار في حكم الحقيقة، حيث ذكر ابن جني ثلاثة مذاهب لتفسير أصل اللغة، تتلخص في الآتي:
مذهب الوحي والتوقيف : وهو مذهب من يرى أن اللغة وضعت عن طريق الوحي والتوقيف، وأن الله ألهم آدم عليه السلام أن يضع لها أسماء فوضعها، وعن ذلك يقول ابن جني: " وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله أقدر آدم على أن واضع عليها، وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة ويقول أيضًا:" إنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والرقة؛ ما يملك على جانب الفكر، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر، فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا رحمهم الله، ومنه ما حذوته على أمثلتهم، فعرفت بتتابعه وانقياده وبعد مراميه وآماده صحة ما وفقوا لتقديمه منه، ولطف

ما أسعدوا به، وفرق لهم عنه، وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله جل وعز، فقوى في نفسي اعتقاد كونها توفيقاً من الله سبحانه، وأنها وحي".

مذهب التواضع والاصطلاح: وهو أن اللغة قد وضعت نتيجة تواضع بين أهلها، أو أن اللغة اصطلاح وتواضع يتم بين أفراد المجتمع، ومن ثم ليس لألفاظ اللغة أية علاقة بمسمياتها.

وعن هذا المذهب يقول ابن جني:" لنعد فلنقل في الاعتدال لمن قال بأن اللغة لا تكون وحياً، وذلك أنهم ذهبوا إلى أن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة، قالوا: وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدًا؛ فيحتاجوا إلى الإنابة عن الأشياء المعلومات، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظاً، إذا ذكر عرف به ما مسماه؛ ليمتاز من غيره، وليغنى بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين".

تابعت هذه النظرية في العصور الحديثة استمراريتها، حيث لاقت قبولاً عند الأب الروحي للدراسات اللغوية الحديثة فرديناند دوسوسير، فهو يقرر منذ البداية أن "الرابط الجامع بين الدال والمدلول هو اعتباطي، ويبرر ذلك بقوله:" وحجتنا في ذلك إنما هي الاختلافات القائمة بين اللغات ووجود اللغات المختلفة"، ولكن دوسوسير ما لبث أن أقر بوجود شيء من العلاقة بين الدال والمدلول، إذ يرى أن "هناك بعض من ملامح الرابط الطبيعي بين الدال والمدلول، ثم يرى أن الفرد ليس لديه" القدرة على تغيير أي شيء في علامة ما، وذلك عند ثبوتها وتمكنها في مجموعة لغوية ".

وخلاصة موقف ابن جني من نشأة اللغة أنه وقف موقفاً وسطاً، فقال بالإلهام والاصطلاح معاً، حيث يقول:" تقدم في أول الكتاب القول على اللغة: أتواضع هي أم إلهام. وحكينا وجوزنا فيها الأمرين جميعًا" . ويوضح ذلك أيضًا ما ختم به هذا الباب حيث افترض أن يكون الله تعالى قد خلق قبلنا أقواماً كانت لهم القدرة التي مكنتهم على الاصطلاح والتواضع في تسمية الأشياء، يقول ابن جني موضحاً موقفه ومعبراً في ذات الوقت عن حيرته بين القول بعرفية اللغة أو القول بالإلهام:" فأقف بين تين الخلتين الإلهام والعرف حسيراً، وأكاثرهما فأتكفئ مكثوراً وإن خطر خاطر فيما بعد، يعلق الكف بإحدى الجهتين ويكفها أو يفكها عن صاحبتها قلنا به".

مذهب المحاكاة :وملخص هذه النظرية أن اللغة نشأت عن محاكاة الإنسان لأصوات الطبيعة المحيطة به، وأقدم الأقوال حول هذه النظرية كانت للفراهيدي وتلميذه سيبويه، فقد نقل لنا ابن جني في الخصائص ما نصه:" قال الخليل: كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداً، فقالوا: صر، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً، فقالوا: صرصر، وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على (فعلان): إنها تأتي للاضطراب والحركة؛ نحو: النقزان والغليان، فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال "، وقبل ابن جني بهذا الرأي ورجحه بقوله: "وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات؛ كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي، ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل."

وتابعت هذه النظرية ظهورها في العصور الحديثة، فتبنى العالم (وتني) ما ذهب إليه ابن جني بحرفيته تقريباً، إذ رأى" أن اللغة نشأت عن طريق محاكاة الإنسان للأصوات الطبيعية التي كان يسمعها حوله".

3. اللفظ والمعنى: تناول ابن جني في كتابه الخصائص العلاقة بين اللفظ والمعنى والعلاقة بين اللفظ واللفظ وأفرد في ذاك أبوابا.

تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني:

تعرض ابن جني لهذا المصطلح إلى المقاربة الدلالية التي نتجت عن المقاربة اللفظية وهي أن ترتبط فيه بعض المجموعات الثلاثية الأصوات لبعض المعاني ارتباطا مطلقا غير مقيد بالأصوات نفسها بل بنوعها العام لا ترتيبها فحسب، فشل كل مجموعة منها على المعنى المرتبطة به متى وردت مرتبة في الأصل، سواء أبقيت الأصوات نفسها أم استبدل بها غيرها مما يتفق معها في النوع من حيث المخرج والصفة. كما عول في كشف عن أوجه التشابه الصوتي بين هذه الألفاظ على شيئين اثنين: أولهما :اتفاق الحروف اتفاقا كليا أو جزئيا. وثانيهما :تضارع حروف اللفظين المتصاقبين، ومهما تباين أشكال هذا التقارب.

رابعا: نقد الكتاب:

لقد أهدى ابن جني العربية كتابا قيما اتسم بالأصالة والابتكار والشمولية والموسوعية والحداثية، حيث أسس لمفاهيم حديقة في اللسانيات، كما اهتم بالدلالة في جانبها التداولي.